الحلقة الثانية

وماذا عن إقلاعه فى عصر الولاة

وتعود بنا الذاكرة إلى عام ٩١ هـ (٧١٠ م) لنقف وقفة متطلعة مع رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، متطلعة إلى المجد تحت راية الله ، لا طمعاً فى قصاص أو ثأر ، وإنما ما أكدته مسيرة الإقلاع ، كانت الغاية - ولو على الأقل فى البداية - أسمى من أن تنطوى فى دروب المنافع والمصالح ، وتحرك الركب لا مجازفة وتهوراً ، وإنما واعٍ بما ينتظره متعرف على أرضيته ، حيث نلاحظ - كما حملت لنا المصادر والمراجع التاريخية - أن هناك جماعة ، قامت بما يشبه فى المخططات العسكرية المعاصرة استطلاع مواقع المواجهة والتعرف على إمكاناته .

هذه الجماعة هى جماعة طريف بن مالك المعافيرى ، واحد من رجال موسى ابن نصير ، كلف بالاستكشاف فعبر إلى الجزيرة التى تحمل اسمه ، وبالتالى أعطى إشارة الانطلاق بعد أن تأكد فى عين المكان مما قيل أن « يوليان » أمير سبتة قد عوّضه على موسى بن نصير ثأراً لما أصابه من طرف القوط ، فلم تؤخذ معلوماته مأخذ الجدية والنهائية إلاّ بعد أن أكدتها جماعة طريف بن مالك من المستطلعين .

وهذا إن دل على شىء ، فإنما يدل على أن هؤلاء الرجال ، لم يتصرفوا بطرق تلقائية حباً فى الدماء ونشوة فى العداء والثأر ، وإنما على ضوء خطط مدروسة وبصبر وأناة ووعى ، مما يؤكد جدارة موسى بن نصير وبُعد نظره كقائد للجيوش ، وسوف نرى أنه كان دقيقاً ، ليس فقط فيما يعنى الاستطلاع ، وإنما مدققاً فى خططه ، منضبطاً فى تنفيذها ، ولعل هذا يفسر الخلاف الذى وقع بينه وبين طارق ابن زياد حينما - وهو فى نشوة النصر والاندفاع - خرج على ما ألزمه موسى

ابن نصير بتنفيذه . ولكن عادا فالتقيا مرة أخرى متكاملين رافعين لراية الحق والجهاد . طارق بن زياد غنى عن التعريف ، رجل الصخرة الذى تحمل اسمه حالياً « جبل طارق » تأكيداً لقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ (١) .

مكث اسم طارق بن زياد ، ومن الغريب أنه حينما تنطق تسمية جبل طارق باللغات الإنجليزية أو الفرنسية على سبيل المثال ، حيث تخفف الطاء وتدغم فى اللام ، يبدو للسامع عن بُعد أنه يستمع إلى جبل « ثأر » ، وانطلق طارق بن زياد بعد عبوره لبحر الزقاق - أى البحر الأبيض المتوسط - زاحفاً نحو ما عُرِفَ بالأندلس عبر قرون وقرون ، لا نقول عبور الغازى المدمر أوالفاتح المستلب ، وإنما عبور القائد الواعى بمسؤولياته ليس فقط بالنسبة لجيشه المنتصر ، وإنما أيضاً بالنسبة لمن أصبح مصيره فى يده من القوط والرومان ، فسمح لهم بسماحة الإسلام أن يقيموا طقوس العبادة وأن يتمتعوا بالحرية الدينية ، واستمر حتى طليطلة رغم ما شَبَّ بينه وبين موسى بن نصير من اختلاف وقتى حول مخطط الفتح وخططه ، ولكن سريعاً ما التقيا وأكملا زحف الرجال نحو الشمال إلى الشرق وأضيفت ولاية الأرجون « أراجون » ، وما حولها إلى خريطة الجيوش الرافعة لراية الحق ، راية الله ، مبشرة بعصر جديد لإنسان هذه الأرض .

وهكذا بدأت الطموحات الكبرى تمر عبر عقول الأبطال من قادة الجيوش وهم يخترقون جبال « البرينى » ، ولِمَ لا ؟ ... حتى القسطنطينية ليعودوا إلى دمشق مقر الخلافة بعد أن تعم راية الإسلام كل ممالك الأرض فى أوروبا . موسى بن نصير وطارق بن زياد يرمزان فى فترة الإقلاع إلى غرس بذور قلاع المجد ، ولكن كان الاستدعاء إلى مقر الخلافة مع إيقاف الزحف .

---

(١) الرعد : ١٧

علامة استفهام كبرى تطرح إن كنا نترك التفاصيل والغوص فى الأعماق للبحث عن الحيثيات الموضوعية ، نترك هذا للمختصين فى جزئيات تاريخ الأندلس ، فإننا نتساءل مع المتسائلين ، وفى إطار هذا الحوار المبسَّط عن الاحتمالات المتعددة التى يمكن أن تبرر هذا الوقف للزحف والاستدعاء إلى مقر الخلافة ، فقد تعودنا أنَّ المتعطش ، بل والمتسرع فى إيقاف المواجهات الحربية هو المهزوم ، فمن الصعب تقبل منتصراً يقف بانتصاره فى منتصف الطريق ، اللّهم إلا إذا كانت هناك عوامل مبطنة يصعب على المتسائل . وبعد مرور ما يتجاوز اثنى عشر قرناً - أن يعطى فيها رأياً نهائياً وفى إطار حوار يركز على العبرة والدرس ، مما حدث ووقع ، أكثر من تفرغه لتعليل ما هو ثابت وصحيح فى تاريخ تغلفت فيه الطموحات الشخصية مع إبراز القدرات البطولية .. ولِمَ لا ؟ مع الفتن والدسائس .

وعادا إلى دمشق ، وكانت الخلافة بدورها تودع « الوليد بن عبد الملك » ليخلفه « سليمان بن عبد الملك » ، وليد الذى ائتمر بأمره للزحف على الأندلس. وشهد البطلان فترة عمَّت فيها الدسائس وتعددت الفتن ، مما يجعل المتسائل أمام موقف فى حاجة إلى حيثيات موضوعية ، القائد المنهزم أو المنتكس من الطبيعى أن يُقاد مسلسلاً ليدفع ثمن هزيمته ، محاكماً أو مسيفاً ، ولكن القائد المنتصر هو هذا القائد الذى تحتفى به الأمم وتخرج المدينة لاستقباله ، تحيى فيه البطولة والوفاء .

لقد انتصر موسى بن نصير ومعه رجله طارق بن زياد ، وكان ثمن انتصار هذا الرجل هو أن تُحمل إليه هدية ما وردت بذهنه ولاطافت بخياله ، حيث قُدِّمت إليه رأس ابنه عبد العزيز ، بعد أن اغتيل فى الأندلس وكان قد تركه خَلَفاً له ووالياً عليها ، واضطلع بالمسؤولية وأكمل مسيرة والده ومع هذا ، هكذا كان مصير الأب والابن ، أن انزوى منطوياً حتى مات فقيراً ، وابن حُمِلَت رأسه جزاءً له على ما قدَّم لتقدم لأبيه ، وبقى طارق بن زياد صاحب الصخرة الشامخة ، بقى لا فوق صخرته وإنما مغموراً كاد أن يمحى أثره ، ولكن إن ضاع طارق بن زياد

فى أزقة الدسائس والفتن والمؤمرات كجسد ، إلا أنه بقى طارق بن زياد كرمز يشهد بصخرته الجاسمة فى المضيق على أنه مكث فى الأرض وكان أقوى من الأحداث .

ماذا جرى فى دمشق لهذين البطلين ؟ ولماذا كانت هذه النهاية ؟ وكيف ؟ تساؤلات متعددة تُطرح على مستوى مؤرخى التاريخ وعلمائه وفلاسفته ، ولكنها تشهد دائماً على أن الأحداث الكبرى من الخطأ أن تُرى فى بُعد واحد أو أن يصيغها لنا مؤرخ انطلاقاً من تذوقه أو انتمائه أو ميوله ، وإنما تظل علامات استفهام كبرى ، نستقى على ضوئها الدروس والعبر ، لتؤكد لنا أن ممرات الدسائس وأروقة الفتن والمكائد ليست وليدة اليوم ، وإنما هى اليوم كما كانت أمس ، تجسِّد لنا بؤر الضياع التى تختفى دائماً لتتصيد رموز قلاع المجد حينما توافيها المناسبات ، أو تسمح لها مواسم الارتزاق .

لقد كان موسى فى فترة وجوده فى الأندلس - وعلى نهجه سار ابنه حتى اغتياله ، هذا القائد المسؤول الذي يسعى بأمانة وإخلاص إلى تطبيق شريعة الإسلام ، يؤلف بين الجماعات لتتآلف وتتعايش وتتساكن ، تاركاً لمن خلف ابنه صورة واعية للسَلَف ، وقدوة جديرة بأن تُحتذى رتُحاكَى فى تساميها أثناء ولايتها وتوليها وقيادتها للمسؤولية .

وهكذا كان « السمح بن مالك الخولانى » الذى أخذ على عاتقه مهمة تكملة المسيرة بإصرار الرجال الصادقين ، حتى استشهدوا ، كان من بعده « الكلبى » ليأتى فى مرحلة تالية دور هذا الرجل « عبد الرحمن الغافقى » (١١١ - ١١٤ هـ / ٧٢٩ - ٧٣٢ م) رجل الجهاد ورجل الاستشهاد ، لقد عبَّأ قوى المؤمنين زاحفاً بهم إلى المواجهة الكبرى ، ولكن مرة أخرى تساءل عبر معركة « بلاط الشهداء » ، هذه المعركة الفاصلة التى كان من الأولى أن تذكر كدفع للإقلاع إلى آفاق وساحات بلا حدود ، يُذكر فيها اسم اللّه ، وتتكامل فيها رسالة السماء تحت راية الإسلام الذى أكمل الوحدانية مبشراً بإنقاذ البَشرية .

من الطبيعى أن الغرب ينظر إلى هذه المعركة الفاصلة التى دفع ثمنها أيضاً قائدها « عبد الرحمن الغافقى » باستشهاده ، على أنها وضعت حداً لهذا الكابوس الذى يُخيِّم على صدر أوروبا ، ومنها بدأت تنتعش موجات الاستعادة لما أُخِذَ من أرض رغم إصرار الزاحفين وقناعاتهم . ولكن مرة أخرى ومرات ، أسهمت الدسائس والشهوات ومواكب الكيد والحقد والتشخص والانفتاح ، والرغبة فى الانفراد بالكسب أو السُلطة بمعنى تسلط فجور النفس على تقواها ، لتُسهم فى تحقيق مطالب الخصم وتسهيل مهمته فى استعادة الأرض ، وصدق المتنبى حين قال :

لا يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

الإقلاع مجسداً فى فترة عصر الولاة ما بين (٩١ - ٩٢ إلى ١٣٨ هـ) الموافق لـ (٧١١ - ٧٥٥ م) فترة من الزمن لم تصل إلى نصف قرن ، ومع هذا شهدت من الولاة عدداً يدور حول العشرين ، إن كان هذا التعدد يُقبل فى مرحلة لم يستقر الوضع فيها بالأندلس ، ومع هذا تترجم لنا إلى أى حد طُبِعَ الإقلاع بطابع المتغير لا الثابت والمستقر ، وبطابع المتعدد لا المتجانس والمنسجم ، فتعدد الولاة كان يناغمه ويزامنه تعدد فى انتماء العشائر والقبائل لا فى سلالاتها فقط ، ولكن فى مدى تعاونها أو تطاحنها وتنازعها ، فضلاً عن التنوع لدى الآخرين من سكان الأرض ، رومان وقوط وغيرهم ، إلى جانب ما اسْتُحدِثَ وعُرِفَ بالمولَّدين ممن دخلوا فى الإسلام أو المستعربين ، حيث إن اللُّغة العربية بشهادة الطرف الآخر جذبت إليها شباب النصارى وصادفت قبولاً وتقبلاً أسهم فيما بعد فى إشعاع الأندلس أدباً وشعراً ، فقهاً وفلسفة ، بل وعمراناً وفنوناً ، وفى مختلف الجبهات .

وكان لقرطبة وإشبيلية ومن البداية إلى جانب مدن الأندلس الأخرى بصمات تركت على جبين حضارة الإسلام لا تُنسى ولا تُمحى ، إضافة إلى هذه الفئة التى

سنرى فيما بعد وعبر حوارنا إلى أى حد تمتعت فى أندلسنا ، ليس فقط بأمن وأمان الحياة ، وإنما بحرية الفكر وحق الكتابة والتأليف والترجمة ، ليس فقط بلغة العرب ، وإنما بلغتها ونعنى بذلك اليهود ، يهود الأندلس ممن تكاملوا مع حضاراته وتعاطفوا مع لغتها وفكرها ، وكان منهم مَن تميز بعطائه وإشراق موهبته كمثال « ابن ميمون » الأندلسى .

إنه إقلاع لمد حضارى خارج أرضه عرف كيف يثبت الأقدام ، لا عبر برك من الدماء وتحت سيوف القهر والجبروت ، وإنما من خلال بث روح التسامح والتعايش والتعارف والتآلف ، حيث ظلت المواجهة فى إطارها المحدَّد لها بحدود المعارك ، أما المدن والقرى فكانت ترمز بهدوئها - رغم تنوعها وتعددها فى انتمائها العشائرى والقَبلى والسلالى - إلى التجانس مع دفاعها عن خصوصياتها ، باحثة عن حد أدنى تثبت به ما آلت إليه رغم أن صوت الجهاد كان هو الطاغى على غيره من الأصوات ، لأن جيوش الإسلام كان عليها أن تتواجه فى أكثر من ميدان .

تتواجه أولاً مع خصمها ومَن يريد أن يستحوذ على انتصاراتها ، وتتواجه فيما بينها ، بل وتتواجه مع ذاتها باعتبار أن جانب الطموح والاستحواذ والتصدر والانفراد بالمكتسبات كثيراً ما كان يغلب لدى البعض غير واع بما وقع له فى حرب « البسوس » ، وغير قانع بكل ما وصل إليه من انتصارات ومجد ، كان من الأولى أن يتجاوز به أنانية النفس ، وهذا ليس بالضرورة كان قاسماً مشتركاً بين الجميع ، فلو كان الأمر هكذا - كما يزعم البعض - لأجهض الأندلس فى يوم مولده بل وفى عصر الولاة .

لقد كانت تتعايش فى أعماق هذه الجماعات مشاعر العزة وأصالة الانتماء وسمو الغايات ورفعة المُثل ، مع أنانية الذات ورغبة الانفراد والتميز ، ولكن مع هذا كثيراً ما استطاعت هذه المشاعر أن تحوى هذه الأنانية فى اللحظات الكبرى الحرجة ولا تصل بها إلى حد الانفجار وعمق الضياع فى

الضياع ، لقد جسدت فقط بؤراً لهذا الضياع لا أقل ولا أكثر ، وظل جسد الأندلس يعانى منها مرة تتقيح وأخرى تلتئم ، تتساكن مع قلاع المجد ، تطفو وتخمد ، تتصدر وتتراجع ، وكثيراً ما غزت الأحداث المعاصرة آنذاك هذا الاتجاه أو ذاك بين صفوف الجماعات .

فلا يمكن بحال أن نتجاهل وقائع كبرى معاصرة لهذه الفترة على مستوى قمة القرار فى خلافة الإسلام حيث سقطت خلافة الأمويين وجاءت خلافة العباسيين ، وحدثٌ بهذا الثقل لا يمكن أن تُتجاهل أصداءه بالنسبة لما يعنينا فى عصر الولاة ، فحينما تبيت الرأس محمومة من الطبيعى أن الجسد يهتز وتضعف فيه قدرة الإيقاع والتجانس ، ويصبح أكثر تأهيلاً للتفتت والتشتت والتآكل والاندحار .

وهنا يمكن أن يُرى عبد الرحمن الداخل « كمعيد » لهذا التوازن الذى اختل بين أجهزة الجسد حيث فصل رأسه المحمومة ليؤهله إلى حياة جديدة تطبع بطابع الاستعادة للوعى ، والتى ظلت تسيطر على الجسد عبر سنين ، خصوصاً وأن ما انتهى إليه عصر الولاة من تعميق للفتن وتمزيق لما تبقى من الجسد نتيجة للصراعات والتنوع فى التطاحن أهَّلَ الأندلس فى إقلاعه المهتز ليبحث بالضرورة عن تجانسه وتوازنه فى ظل رأس مدبرة قادرة ومستنيرة تتميز بممارسة المواجهة والصرامة والحزم ، وفى جمله مباشرة : ما يمكن أن تتحلى به القيادة فى اللحظات الحرجة من حياة الأمم . ومعه ننتقل فى حوارنا متواصلين عبر الأندلس إلى الحلقة الثالثة نجسدها فى عصر الإمارة ، وفيها نتجه بفتوة الإقلاع إلى صرامة الاستقرار .

* * *